الباب الأول

حالة العرب قبل البعثة

حالة العرب قبل ظهور الإسلام لا تختلف المصادر في وصفها بالتخطيط، والضلال، فهم غارقون في شركهم بعد أن نقل إليهم عمر بن لحىٰ[1] بن قمعه بن خندف جد خزاعة عبادة الأصنام.

وإلى الشرق منهم الفرس وقد سادت فيهم الإباحية حتىٰ شاع زواج الرجل بأمه أو ابنته أو أخته، وكانت الديانة الزراد تشيه والمزدكية تشتركان في الإباحية المطلقة والانحرافات الخلقية، وكذلك كانت الهند في ادني درجات الانحطاط الخلقي والاجتماعي[2] قبيل ظهور الإسلام، كما تلاعب الرومان واليونان بالديانة المسيحية[3]، فحرف اليهود والنصارىٰ كتبهم، وأخذت ملامح الشرك تنخر عقيدتهم بادعائهم وتزويرهم، وكان الانحلال الخلقي، والخلل في العقيدة هو القاسم المشترك بين الجميع.

ويكفىٰ أن نعرف أن القبائل العربية كانت تقوم بينها الحروب الطاحنة في ناقة أو سباق كما تروىٰ كتب التاريخ عن حربي البسوس وداحس والغبراء.

ونحن في غنىٰ عن الرجوع إلى المصادر التاريخية وأما منا مصدر لا يتطرق الشك إلى

---

(1) سيرة ابن هشام جـ1 ص 49 وقد خرج عمر بن لحىٰ إلى الشام في بعض اموره ووجد بها العماليق يعبدون الاصنام ولما سألهم قالوا: نستمطرها فتمطرنا. فطلب منهم أن يعطوه صنما، فأعطوه هبل فنصبه في الكعبة وامر الناس بعبادته وتعظيمه.

(2) فقه السيرة للبوطىٰ ص 24.

(3) الجمعة الآية 2.

صدقه وهو القرآن الكريم الذي يصور الفساد السائد قبل ظهور الإسلام في قوله تعالى: {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} (الجمعة: 2).

وقوله تعالى {واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها} (آل عمران: 103) وقوله جل شأنه: {كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور} (إبراهيم: 1). وليس هناك أوصاف للفساد ابلغ مما وصف الله به الحال التي كان عليها العرب وغيرهم قبل ظهور الإسلام: الظلال المبين، والعداوة، وكونهم على شفا حفرة من النار، والظلمات وفي قوله تعالى: {لتخرج الناس من الظلمات إلى النور} دليل على عالمية الرسالة فهي لإخراج الناس من ظلام الشرك والوثنية إلى نور الإيمان والحق، وكلمة الناس تعم جميع البشر في قوله ﷻ: {قل أعوذ برب الناس} (الناس: 1).

كما أن فيها دليلا على أن الفساد قد عم الجميع عربا وغير عرب وان كان في العرب شيء من الأخلاق الفاضلة كالكرم، وتعظيم البيت الحرام، ونصرة المظلوم وحماية الجار، وتحمل الدية، ولكن هذه الصفات لم تكن تستند إلى عقيدة تضمن بقاءها ودوامها، فليس من يعمل الخير محتسبا أجره على الله، مؤمنا بالجزاء على ما يفعل، كمن يعمل الخير بعيدا عن دوافع العقيدة وتأثير الإيمان، واهم ما تميزوا به تعظيم البيت الحرام والفصاحة حتى تحداهم القرآن وهم أهل للتحدي بالإضافة إلى هذا فإن الجوانب السلبية كانت أوسع من الجوانب الايجابية، فالظلم واضطهاد المرأة واليتيم، واحتقار العبيد والضعفاء، وشرب الخمر، والربا، وتبذير المال ووأد البنات، والتفا خر بالا حساب والأنساب، والزنا كل ذلك كان يلون حياتهم ويلقى عليها ظلالا كثيفة. وإذا نظرنا إلى ما كان عليه حالهم في الجاهلية وما آل إليه حالهم في الإسلام تبين لنا بشكل واضح مدى التغير الهائل في الطبائع من الحضيض إلى القمة. فليس عمر بن الخطاب مثلا في الجاهلية هو عمر بن الخطاب في الإسلام، وهذا كما يصدق علي كل فرد يصدق علي الجميع بطبيعة الحال. أما الذين استمروا علي شركهم، ولم يستجيبوا لدعوة الحق فلم يتغير من طباعهم شيء. إن الإسلام الذي اعتنقوه وطبقوه أتم تطبيق هو الذي جعل المتحاربين بالأمس متحابين متعاونين، وجعل الذين كانوا أعداء بالأمس، أخوانا يفدي الواحد منهم أخاه بنفسه، فباتوا يتقاسمون الرغيف ويتشاطرون قطرة الماء، وقد جعل منهم

الإسلام خير أمة نشرت العدل في آفاق المعمورة، وسمع الناس عن عدلهم وسماحة تعاملهم، فدخل الكثيرون الإسلام لما لمسوا منهم من الصدق وحسن المعاملة في الكثير من البلدان التي لم يصلها الفتح الإسلامي، وإنما انتشر فيها الإسلام عن طريق التجار المسلمين الذين كانوا بمثابة دعاة طبقوا تعاليم الإسلام أحسن تطبيق فاقتدى بهم غيرهم.

وقد أحدث الإسلام تغيرا في نفوسهم لم يحدثه أي حدث تاريخي قبله ولا بعده حيث قضى على كل المفاسد، ولم يبق على شيء مما تعارفوا عليه إلا ما كان خيرا في علاقاتهم وبعض طبائعهم، أما جانب العقيدة فقد أسسه الإسلام على التوحيد ولم يبق على شيء من خرافاتهم ووثنيتهم حيث لا توسط بين الإسلام والكفر. ومن استجاب منهم إلى دعوة الإسلام استجاب عن صدق. ومن لم يستجب فحسابه على الله.

وصف بلاد العرب وتاريخهم:

تقع بلاد العرب في الجزء الجنوبي الغربي من آسيا، وهي شبه جزيرة يحيط بها الماء من ثلاث جهات: البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج العربي، وهي في مجموعها صحراء، ولكنها ليست ككل الصحارى التي لا زرع فيها ولا ماء، وسطحها مختلف يجمع بين الكثبان الرملية، والجبال والآكام، والأغوار، والجبال المرتفعة. وهي بحسب طبيعتها خمسة أقسام:

1- تهامه: وهي الأرض الواطئة الممتدة بمحاذاة البحر الأحمر من ينبع إلى نجران في اليمن. وسميت بهذا الاسم من التهم وهو شدة الحر وركود الريح.

2- الحجاز: ويقع شمالي اليمن وشرقي تهامة وهو إقليم جبلي ورملي وفيه مكة المكرمة والمدينة المنورة وسمي بهذا الاسم لأنه يحجز بين تهامة ونجد.

3- نجد ويمتد بين اليمن جنوبا وبادية السماوة شمالا، والعروض وأطراف العراق وسمي بهذا الاسم لارتفاع أرضه.

4- اليمن ويمتد من نجد إلى المحيط الهندي جنوبا والبحر الأحمر غربا ويتصل به من الشرق حضر موت وعمان.

5- العروض: ويشمل اليمامة وعمان والبحرين وسمي بهذا الاسم لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق.

وينقسم العرب إلى قسمين كبيرين هما:

العرب البائدة:

وهم الذين بادوا ودرست آثارهم، ولا نعرف عنهم إلا ما ورد في الكتب السماوية كأخبار عاد وثمود. ومن أشهر قبائلهم: عاد، وثمود، وطسم، وجديس، وجرهم الأولى.

أما القسم الثاني:

فهم: العرب الباقية، وينقسمون قسمين:

العرب العاربة:

وهم الصرحاء الخلص وهم شعب قحطان وموطنهم بلاد اليمن ومن اشهر قبائلهم جرهم ويعرب ومن يعرب تشعبت القبائل والبطون من فرعين كبيرين هما: كهلان وحمير ومن أشهر بطون حمير: قضاعه ومن أشهر بطون كهلان: الازد ومنهم: الأوس والخزرج وأولاد جفنه وهم الغساسنه الذين ملكوا الشام وقد قامت لليمنيين عدة ممالك أشهرها معين وسبأ وحمير. ولما تفرقوا عندما انهار سد مأرب اتجهوا نحو الجزيرة العربية، فانتهوا إلى الحجاز والمدينة وتغلبت قبيلة ثعلبه على اليهود بالمدينة وتغلبت قبيلة خزا عه على جرهم الثانية وأجلتهم من حرم مكة وجرهم قبيلة قحطانية من اليمن وسارت جفنه إلى الشام ونزلوا بما يقال له غسان فنسبوا إليه ومنهم ملوك الغساسنه.

أما القسم الثاني من العرب الباقية:

فهم العرب المستعربة وقد سموا بذلك لأن إسماعيل عليه السلام كان يتكلم العبرانية أو السريانية فلما نزلت جرهم من القحطانيين وهم العرب الخلص - نزلت مكة وسكنت مع إسماعيل وأمه وتزوج منهم وتعلم العربية هو وأبناؤه فسموا العرب المستعربة، وهم جمهور العرب من البدو والحضر الذين يسكنون أواسط جزيرة العرب وبلاد الحجاز إلى بادية الشام حين خالطهم أخيرا في مساكنهم عرب اليمن بعد انكسار سد مأرب بالسيل العرم.

ويختلف النسابون فيما بعد عدنان إلى إسماعيل من أسماء رؤوس القبائل المستعربة والذي ذكره النبي ﷺ من أجداده هو ما بين عدنان وعبد المطلب، أما فوق عدنان فهو محل

خلاف لأن العرب كانوا أميين لم يدونوا أنسابهم في كتب ولا نقشوها على آثار وإنما تناقلوها بالرواية. والمجمع عليه أن عدنان من ولد إسماعيل وقد رحل إبراهيم بولده إسماعيل عليهما السلام مع أمه هاجر إلى مكة – وهذا لاشك فيه لأن القرآن أثبته فأقام إسماعيل وأمه مع جرهم من أولاد قحطان وتعلم منهم العربية ثم صاهرهم وولد اثني عشر ولدا وتفرعت منهم بطون كثيرة، ومن أولاده معد ومنه تناسل[1]. عقب عدنان كلهم.

(1) انظر تاريخ الإسلام حسن إبراهيم حسن جـ 1 ص 12.